الحس المأساوي وأثره في اللغة الشعرية في ديوان" أغنية تشبهني" لـــ: لطيفة حساني

الدكتورة: نور الهدى حسني
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر– بسكـــرة

تحاول هذه الورقة قراءة ديوان من دواوين شاعرات بسكرة اللاتي عبّرن عن الحس الشعوري والمأساوي في أشعارهن، ولطيفة حساني إحدى الشاعرات الجزائريات اللاتي قرأن الواقع بعين الشعر وقدّمن التزاما نحو قضايا الوطن والأمة.

وتقوم هذه الدراسة وفق خطة قوامها الآتي:

أولا: دلالة العنوان.

ثانيا: اللغة الشعرية في ديوان" أغنية تشبهني".

1– اللغة بين المعيارية والإبداع في الديوان.

2– التكرار

3– الضمائر وأثرها في شاعرية اللغة.

ثالثا: البنية الإيقاعية في ديوان أغنية تشبهني(البحر، الوزن، القافية...)

رابعا: الحس المأساوي بين الذات والآخر في الديوان:

1– وقفة مع الذات.. ووقفة مع الآخر.

2– نبرة الحزن وأثرها في ديوان" أغنية تشبهني".

3– المكان ودلالاته المأساوية في الديوان.

إنّ ديوان أغنية تشبهني للشاعرة لطيفة حساني هو رثاء لكل ما يؤلم الذات ويوقض الجراح ويذرف دمع العين ولا يكفكفها، إنه صرخة ترفض الواقع المرير بنبرات حزينة يائسة تستجدي حلما يصرف أمراض النفس ويداوي جراحها، إنها صرخة أنثى تشكو

الهزيمة والانكسار، وتصرخ في اضطراب وتشتت.. تبحث بين أغانيها عن الاستقرار والطّمأنينة التي فقدتها...

إن ديوان" أغنية تشبهني" يمثل صرخة تفجر آلام امرأة أفرغت فيه مكبوتاتها.. امرأة تقلّبت عليها المواجع وتزاحمت الذكريات في خاطرها فكان الديوان رثاء للذات الأنثوية المهزومة، دندنت به الشاعرة أغنيتها التي تصوّر أحوالها.. أحوال الطفلة التي تشكو يُتمها بفقدان أبيها، وأحوال المرأة العربية الأبيّة التي ما عاد يرضيها أمر العرب وما آلت إليه أوضاعهم، وأحوال المرأة الرؤوم التي ترتجي مسح دموع الأطفال.

والشعر عند لطيفة حساني متنفس للبوح إذا ضاقت الدنيا، واحتبست الدموع في المقلتين واسترسلت الكلمات مع وجدان الشاعرة لأداء ألحان المواجع.

أولا: دلالة العنوان:

بناء على الحس المأساوي الحاضر في ثنايا النصوص آثرنا قراءة الذات الأنثوية في ديوان" أغنية تشبهني" ونبدأ بالعنوان الذي اختارته ليكون تعبيرا عن المواجع وتلخيصا للدلالات التعبيرية المتكاثفة، ومحاولة مقاربة الرؤية الشعرية الحاضرة في الديوان مع معطيات الثقافة المعاصرة، فالقارئ للديوان يقف على قصائد حداثية في معانيها ومواضيعها، ردّدتها الشاعرة في تراتيل متعاقبة تصف الهموم البشرية باضطراب وتشتّت، فهي تحكي واقعا ممزقا محاطا بأحلام تستجديها وذكريات تحيط بها، وواقع يكسرها...، وبين فقدان العزيزين الأب والأرض أو البلد ذات تفصح عن التشبث بالأحلام، وتستثير مراتع الآمال، وتومض في النفس نورا يلملم أشتاته ويمضي نحو غدٍ يتخبّط في خبايا الرؤية والقراءة.

لقد وردت عناوين القصائد كاشفة عن شخصية هذه الأنثى التي تبدو فصيحة في كثير من الأحيان وأخرى غامضة مشتتة تبحث عن هويتها الضائعة عن عالم المثل المفقود(الحرية، الأمان، السلام).

وعنوان الديوان" **أغنية تشبهني**" بحث عن الذات المتخبطة في غمرات الضياع يسمع شدو الناي الحزين ويبحث عن أسرار الفردوس المفقود في ذات الشاعرة وبين ثنايا النص توارٌ لأفكار الغد الجديد المبعوث من رحم الأمس، تقول في قصيدة(للماء عزف آخر)[1]: [بحر البسيط]

كالريح في لا جهات أقتفي بلدا يشكوا الضياع ومنه الكون قد ولدا.

وفي الأغنية تيهان يتشبّث بمسقط رأس الشاعرة ربما هو المكان الحقيقي في مرآتها؛ إنه موطن الأمان والاستقرار وموضع اليقين والأصالة[2].

عقبية الوجه حلم النخيل يلبسني روحا تفتـــــش عن طين لتنتحرا.

لمَ الرواحل عادت وحدها وأنا على الدروب اكتظاظ لا يرى أحدا؟

فمسار الشاعرة محاط بكل معيقات الوصول إلى الغد فهو بحث في المجهول، وهي تتخذ من الشعر سبيلا لرفض الاستسلام والبحث عن صبح جميل وأمل في الأفق، ووسيلة للتعبير عن كل ما يختلجها من معاناة ومن تحدي ومن ألم تنشد أن يتحوّل إلى أمل في غد مشرق، تقول[3]:

تناهبتني خيوط الريح مبعدة عني التشبث فيما قد يكون غدا

ضوء بأقبية النيسان يومئ لي لمّي الصباح ألا يكفيه ما فقدا؟

فالعنوان" أغنية تشبهني" اتصال للشاعرة بذاتها، كأني بها تريد القول إنّ الديوان تعبير صادق عني وعن حالتي الشعورية التي أعايشها.

وقد اختارت الشاعرة لأغلب عناوين القصائد في الديوان، الجمل الاسمية الدالة الثبات والاستقرار وهو استقرار لآلام واوجاع تعانيها لم تغادرها في كل صفحات وقصائد الديوان، امتزجت فيها الآلام والاوجاع الشخصية بسبب فقدانها والدها وما يجري حولها من آلام الامة العربية في الشام فكانت أحاسيسها موزعة بين ذاتها والآخر ممثلا في شعورها القومي مما جعل حالتها الشعورية التائهة والمضطربة والحائرة بسبب كثرة المواجع والآلام تستقر فيها ولا تغادرها، ومن عناوينها(وهم– غربة– دمعة طفل عربي– كأني أنا...) تحرك بها وجدان القارئ بلغة تعتمد على الحوار النفسي المتضارب في أسطر النص الواحد.

ثانيا: اللغة الشعرية في ديوان أغنية تشبهني:

تمظهرت ألفاظ القصائد وفق حقول متعدّدة تفسح للتعبير فرصة التراوح بين الكبت والغموض والمعاناة والمتتبع لتطور الشعر النسوي يلحظ أنّ جل الدواوين الشعرية مشبعة بآهات وكلوم أنثوية قلقة كاشفة حدة التوتر، فجاءت القصائد" صرخة نسوية" تسربت عبر الذاكرة حاكية حلما مرجوا غير بعيد...»[4].

وقصائد لطيفة حساني في ديوان" أغنية تشبهني"« باكية تكاد تنفطر حزنا... قصائد نضدها الديوان ليكون مدادها من دمع الروح الذي ينسكب في صمت على الفقد كلّه، أيا كان نوعه ولونه... لأننا سنجد بها تطوافا على كل شيء جميل مفقود... سنجد بها حسرة الشباب على الحياة الكريمة.. على خيبات الربيع الذي جاء مسربلا بالدماء والنكسات»[5].

تقول الشاعرة في قصيدة" آه يا شام"[6]:

وصبيّة نامت تؤنسها الدّمى وصباها بين المنية والرجام.

نلحظ كيف تعبر عن معاناة إخواننا في الشام وحرمانهم حتى من أحلام الصبا بحكم الموت الذي يهدد أمنهم ويلحقهم في يقظتهم وفي أحلامهم حتى قتل فيهم كل أمل في العيش عيشة هنية.

وتقول في قصيدة" معازف الصمت"[7]:

كم انتظرت قدوم البحر حالمة وها أتى البحر سبّاقا لإغرائي.

فالشاعرة تصف واقعا مريرا سواء كان واقعنا العربي أم واقعا نفسيا تمرّ فيه بحالة من التيهان والضياع، وربما يعود ذلك لفقدانها والدها مصدر الأمان والاستقرار ورمز الحنان؛ فهي تعاني« خيبة الغد العربي الذي حلمناه حلما خبيئا في ثنايا كل أم ولدت لتدفع صغارها إليه، وحلم كل أب كدّ ليكون اليوم أجمل من الأمس، وليكون الغد أحلى منهما جميعا»[8].

ونجدها أيضا تقول في وصف واقع إخواننا بالشام مستحضرة ماضيهم الجميل والمشرّف:[9]

ياذاهبا للشرق سلّم لي على ماض توسّد قلبي الدامي ونام
سلّم على كل الزهور وكــل قبر كان بشرى المحبّة والوئام

ونجدها تعبر عن بكاء الفتاة التي افتكت منها الحرب والدها الحاني والمدافع عنها تحت أغاني الرصاص بلغة شعرية جميلة تحوي إشارة إلى كل معاني الأسى والحسرة والخوف، تقول[10]:

أختي بكت من ذا يكفكف دمعها؟ وأبي وأمي فضلا عنّا السفر

1- اللغة بين المعيارية والإبداع في ديوان" أغنية تشبهني":

وبالرجوع إلى عنوان الديوان الذي يمثّل عنوان إحدى قصائد الشاعرة فإنّ اختيار لفظة أغنية جاء تعبيرا عن حجم المعاناة التي يشهدها واقع الشاعرة لطيفة حساني بين حضور الموت للقريب أو البعيد وبين أصوات الرصاص الملعلع في بلداننا العربية، فجعلت ذلك الواقع مطبوعا على نفسيتها التي تعاني صراعا داخليا مع الذات روحة وجيئة تتضارب فيه الأفكار وتتشتت وتعود للالتمام والاتفاق على إنشاد أغنية الحياة والتمسك بلحن الحرية في ديوان عنوانه" أغنية تشبهني".

فلا شكّ أنّ وظيفة العنوان الرئيسة هي« إثارة فضول القارئ»[11]، أو كما يقول " بارث"« فتح شهية القراءة»[12]، وهذا ما لاحظناه في عنوان" أغنية تشبهني" الذي تعقد فيه الشاعرة قرانا بين الخبر وجملة الصفة في ظل غياب المبتدأ من البنية العميقة.

فالأغنية إشارة إلى دندنة شعرية تُلقى للقارئ ليتتبّع نغماتها ويستكنه مفرداتها ويقيم سمفونياتها الإيقاعية، وهي خبر محذوف ما قبله، فالتركيز إذن على جملة الصفة« فكل النعوت والصفات كان لها الدور الأساسي في تحديد اتجاه الخبر وموضعته حيث أراد الشاعر، ولا نغلو كثيرا إذا قلنا إن موضع القصيدة يتحدّد تبعا للصفة لا الخبر»[13]، فقد أحالت الشاعرة لذاتها وكأني بها تريد أن تقول: إن هذا الشعر المضمّن في الديوان يعكس حالتي الشعورية والنفسية، وهي حالة تتسم بالضياع والتيهان وتحاول فيها محاكمة الواقع الفج الذي آل إليه المجتمع العربي(حالة اللاتماسك واللاشعور)، تقول في قصيدة(أغنية تشبهني) [14]:

دمعي قصيد ووجهي وجه أغنية مازلت أنثرها تجمع الخلدا.

فالصفة وردت جملة فعلية مضارعة تتحرّك في سراديب الألم تنشد طلوع صبح يملأ ذاتها أملا وانبعاثا نحو مستقبل يضمّد جراحها، فالصفة مسيطرة على العنوان في تشابهها مع ذات الشاعرة« ذلك أنّ تسمية القصيدة بالأغنية أمر ألفته العرب، حتى إنهم سمّوا الشعر غناء وقالوا: غنّى بالشعر وتغنّى به»[15]، وعليه فإن تسمية القصيدة بـــ " الأغنية" ليس أمرا مستحدثا ووجودها لا يمنح للعنوان دلالات إضافية غير معناها الحقيقي، لكن ذلك لا يمنع من حضور فرق بين دواوين الأغاني وغيرها من الدواوين.

2- التكـــرار:

من المعاني المترددة في قصائد الشاعرة ما يعبر عن المعاني النفسية فيما سمّيناه الحس المأساوي في ديوانها، وهي معان كثيرا ما تتكرر فيها نبرات الحزن والأسى والأنين وفق أنساق تعبيرية تعكس المستويين الصوتي والدلالي.

والتكرار إحدى الظواهر التي تثبت المماثلة في البناء داخل النص الواحد كونها تبرز القيم الشعورية لأجل التأثير في القارئ وإحداث توازن موسيقي، كما فيه التركيز على كلمات محددة قد تمثل كلمات مفتاحية أو رموزا تبثها الشاعرة سواء كان ذلك شعوريا أو غير شعوري، ومن الدوال المتكررة في ديوان" أغنية تشبهني" الموت والبكاء والدموع واللاجهات، والنخيل، والحلم، والناي، والطين والبجعات والسماء والنجم والمطر وغيرها..، ولكل منها معانيه الخاصة.

فبالنسبة للجمل المكررة فقد انحصرت على تلك التي تحتمل معاني الموت والرحيل والغياب، تقول في قصيدة(عزف الرحيل)[16]:

بسمتي وقتَ شريد

ليس يأتي

ولقاء ليس يأتي

وطريقا ليس يأتي...

أو قولها في قصيدة(بعد موت الطير)[17]:

كل هذا بعد موتي ... هو شرط بعد موتي.

فهي تكرارات لفظية تشير إلى دلالة الموت في قصائد الديوان التي غابت عنها بسمة منتظرة تتسرب من ثيايا الغد المنتظر، إنها الأمل المفقود الذي يكدحه الموت ويعترض طريقه.

وأما ما تكرر من دلالات بين ثنايا القصائد على تنوعها فقد جاء رموزا مشحونة بمعان كثيرة تبث رمزيتها، ومن ذلك قولها[18]:

للطـــين ذاكرة النخيـــــل ثقافـــةُ المتفـــــرد المكـــتظّ بالأنحاء.

أنا بسمة الطين المضيء رســـالة الغيم المســـافر في أقاصي الماء.

وتقول في تكرار لفظة(الناي)[19]:

وورثت حزن الناي حتى كنته لأقص عنه... أنّة الشعراء.

وفي تكرار رمز(البجعات) تقول في قصيدة(غربة)[20]:

تترنم البجعات ملء غيابها والبحر للشجو المسافر حنّا

وتقول في قصيدة(كأني أنا)[21]:

لأغنية البجعات عزفت

وحيّيتني بالصدا وانصرفت

تنفّسني السحر بعد رحيل المراسم

ولو أمعنا النظر في المفردات المكررة لوجدناها رموزا محملة بمعان فياضة لها دلالاتها وإيحاءاتها المأساوية التي لا تخفى على أي قارئ، فتوظيف لفظة(الناي) في القصائد لم يحدث اعتباطا بل لعلاقة قائمة بين الحزن وصوت الناي المنبعث في الأجواء مفرغا هموم النفس في الفضاءات الرحبة التي ضاقت بمشاكلها ومآسيها عند الشاعرة..

أما أغنية البجع فهي" تعبير مجازٍ يرمز إلى آخر عمل أو جهد أو إيماءة قبل الوفاة أو الرحيل. يعود هذا التعبير إلى اعتقادٍ قديم مفاده أن البجع يقوم بالغناء قبل لحظات من وفاته بعد أن ظلّ صامتاً طيلة حياته. هذا الاعتقاد، يستند في واقع الأمر على جدلٍ طويل، كان مضرب للأمثال في اليونان القديمة في القرن الثالث قبل الميلاد، وفي وقت لاحق، أُعيد التأكيد عليه كثير من المرات في الشعر والفن الغربي. بمرور الوقت، أصبحت " أغنية البجع" مصطلح يُشير إلى الظهور المسرحي أو الدرامي الأخير، أو أي عمل أو إنجاز أخير. بصفة عامة يحمل هذا المصطلح دلالة على أن المؤدي يعي أن هذا هو آخر عرض له في حياته، وأنه يبذل كل ما في وسعه في محاولة أخيرة لإظهاره بأحسن صورة"[22].

3- أثر الضمائر في شاعرية اللغة في ديوان" أغنية تشبهني":

حاولت الشاعرة وهي تصف صراع البقاء والفناء، وصراع الذات مع واقعها اللعب بالكلمات والإشارة لذاتها الإنسانية مركزة على توظيف ضمائر المتكلّم بكثرة في القصائد، ومما تجدر الإشارة إليه أسلوب المبالغة في توظيف" نون الوقاية" التي يفترض أنها تفصل بين الفعل وياء المتكلم، إلا أن الشاعرة اختارت توظيفها للفصل بين ضميرين

دالين على ذاتها وهو أمر لا يحضر في اللغة أو سننها، والغاية من ذلك الإشارة إلى ضمير الأنا أكثر ولفت انتباه القارئ، ومن أمثلة ذلك قولها[23]:

قدّيسة جاوزتُني حتّى تمرأتني ملامح مريم العذراء.

فهو تركيب غريب يثبت ضمير الأنا الذي يصوّر ذاتية مفرطة تبرز حرف النون للعيان أكثر، يجعل من التلاعب بالكلمات صراعا بين الضمائر يؤكّد قضية الشاعرة وهي قضية صراع الأنثى ووجودها[24]، وهو أمر يتعلق بها كذات أنثوية تكثّف الضمائر لإثبات حضورها الشعري أيا كان موضوعه أو أسلوبه، ولقد أشارت الشاعرة إلى صفة القداسة الأنثوية ممثلة في صورة **مريم** الطاهرة بكل ما تحتويه الصفة من معاني البراءة والطهر والنقاء والإيمان..

ثالثا: البنية الإيقاعية في ديوان" أغنية تشبهني":

1- البحر:

تعكس البنية الإيقاعية شدة التوتر والحزن، وتتراوح بين الهدأة والانفعال في تصوير الحالة النفسية الثائرة أو المنكسرة أو الغاضبة، تقول في قصيدة" دثرت قبرك"[25] نظما على بحر البسيط الذي تكرر في أغلب قصائد الديوان:

دثرت قبرك من دمعي وأطاعي متى يجود الثرى هذا بإسماعي.

نعم سأبقى أمام القبر صامتة حتى تحاورني يا كلّ أوجاعي.

قالوا تولىّ فخلت القول ترهة من ذا سيفلح يا قلبي بإقناعي.

والملاحظ أن النظم على بحر البسيط جاء بانسيابية مرتبطة بخاصيتين هما[26]:

1/ الشكوى الهادئة.

2/ الإذعان لما قدّر له.

" وكلاهما يؤديان إلى الهدوء والسكون، وعدم الحركة"[27]، فتلحظها حركة راكدة تسترجع أوجاعها بهدوء واستسلام، جعلها تتمنى الموت، فهو خفوت نفسي يركن إليه الشاعر بعد معركة تتراوح بين الشعور واللاشعور.

وهو ما تثبته في نص آخر(تغريبة التوليب)[28] جاء على بحر الرمل:

ليتني أكملت في اللاوعي فكري وتجلى الوهم في وجه ارتيابي.

ليتني في غربة مـــــا لم أكني وتولت زفرتي عنــد ارتكابي.

فتنويع الأبحر الشعرية نتيجة لتنوع المواضيع التي تطرقها الشاعرة لأن" التنويع في أوزان القصيدة يعطي للتجربة الشعرية [...] قوة التصوير وصدق الرؤيا، وينعكس على الألفاظ التي تنتمي بعضها إلى الأصوات المجهورة التي توحي بالحركة، كما تكثر حروف المد في حالة التوتر النفسي، وهذا يعطي فرصة للذات المتعبة من أن تخرج زفراتها الوجدانية الخزينة كاملة فتحدث اهتزازا لدى المتلقي. أما في حالة الهدوء النفسي؛ فإن الأصوات المهموسة تشكل نسبة عالية في النص الشعري.."[29].

2- الأصوات والأوزان:

وأما بالنسبة لألفاظ الشاعرة المبثوثة في قصائدها فهي مراسيل الوجدان بكل رؤاها وأحاسيسها، تحملها اللغة الشعرية ممثلة في أوزانها وقوافيها، فتتدفق الأغراض والمعاني النفسية خلالها لتعبر عن ثورتها بأسلوب شعري بارع، فلقد راعت الشاعرة في اختيار الألفاظ والقوافي توظيف الأصوات المجهورة والمهموسة التي تبوح بالذات الهادئة في تمظهرها الغاضبة في مشاعرها المتّقدة وفي أوصافها تقول في قصيدة(بعد موت الطير)[30]:

كان للطير رسالة...
خطها من ذكرى دمعة زمان ما تمنّينا زواله.
لفّها لفا بريئا ثم طار..
لم يكن يعلم أن الأفق كون من حصار..
وتجلّى من ضجيج الصمت من خلف الذهول
يتماهى
يتشظى في انفراد الكل يا بعض الأفول
هاهنا أرض أضاعت ما عليها من جميل
أخذ الطير الرسالة رجاء وكتابا ونصائح
هو درويش كمثلي لم يكن يعلم تكتيك المسارح
لم يكن يعلم أن الكف نفس الكف تردي لتصافح..

فالطير رمز للذات الساذجة التي تغتالها حيلة البشر، لا بقاء للمثل والقيم سوى التعنت والبقاء للأقوى.

ويقابل تلك التوظيفات حضور حروف المدّ الدّالة في أبعادها الصوتية التعبيرية على بوح يتردّد بين الشفاه فيتسرب ليسرد وجع النفس، تقول في قصيدة(غربة) [31]:

جرس على باب افتراضي رنّا أتراه جاء الحبّ يسأل عنّا؟.

هل سنديان العمر يوما يكتسي أم يرتديه البرد عضنا غضنا؟.

الدّهر قال وكان أصدق قائل أوَيدرك الإنسان ما يتمنّى؟.

3-القافية:

ولا تغيب لغة الكبت والانقباض عن أسلوب الكتابة الشعرية عند لطيفة حساني فتظهر في الأصوات المتكررة بانتظام آخر الأبيات فيما نسميه القافية، وكثيرا ما تجعلها الشاعرة مقيدة لتصف بها الحس المأساوي المتصف بالانسداد والانغلاق محملا بشحنة نفسية تثير أثرا في نفس قارئها. رغم سبقها بحرف الألف الممدود الذي يومئ باتساع ينتهي إلى انغلاق نفسي كئيب، وهذا ما تجسده قصيدة(آه يا شام)[32]:

يا شام أبقيت السلام فردّ دمـــع الياسمين بصمته جف الكلامْ.

الموت أسرع من ردود سلامكم يا عرب متّمم مثلما مات السلامْ.

رابعا: الحس المأساوي بين الذات والآخر في ديوان" أغنية تشبهني":

1- وقفة مع الذات.. ووقفة مع الآخر:

تقف لطيفة حساني مع ذاتها وتحاول كشف ماهيتها وفهمها موظفة ذلك في قصيدتها التي جعلتها عنوانا لديوانها(أغنية تشبهني) وفي قصيدة(كأني أنا)، فنجدها ذاتا ضائعة تختلط عليها التعابير لتضطرب وتتردد في عديد من المواضع، وكأن القارئ أمام جمع من الشخصيات المتضاربة التي تبحث تارة عن الذات، وتارة عن الوطن، وأخرى عن اللاجهات في تماه غريب... تقول[33]:

حلما جديدا

يبعثرني فيه ضوءا بلا وجهة

وبعد رحيل النوارس

رأيت الشواطئ حيرى بأهزوجة من سكوت

رماد الحكاية يلعن نيرون

حد بكاء المدن

فيا ضائعا منك ماذا الثّمن؟

والملاحِظ يستشعر أن ذاتها تنعكس على كل شيء تراه وتسمعه، وتقرؤه، بكل ما علق بها من غبار الحياة فحوّلها- من زاوية نظرها- إلى امرأة يسقط عليها وينعكس كل شيء بشفافية وصفاء توصلت بهما إلى الهيئة الرمادية فوظفت حاسة اللون، ووظفت الشفاه التي تعزف بها لحن الحياة، ووظفت رمز(نيرون) الدال على الملك الطاغية الذي قتل شعبه بكلّ وحشية وقهر وعبودية، واصفة حالة البكاء التي لا تغادرها(تجهش،- حدّ البكاء- دمع...)، كلّ هذا وهي تعاني حالة من التيهان، تقول[34]:

تغني بأصدائي الحالمة.

تدور المرايا.

تدور...

تدور...

فكلّها وقفات تعبر عن الذات الإنسانية وما يتلبّس بها من مشاعر الألم والتشاؤم والتيه والغربة والأسى والأنين.

ولم يظهر الآخر في ديوان" أغنية تشبهني" بالنحو الذي عهدنا في الشعر المعاصر، وما ورد في خطابات الشاعرة عن الآخر كان حديثا عن صورة الأب الذي سجلت قصائدها في رثائه والحزن عليه، مركزة في خطابها على ما يخرجها من ضائقة الصمت والهمس والمناجاة والحزن والأنين، فاشتعلت ألفاظ القصائد حرقة لفقدان الأب الحاني، ووصفا لانكسار الذات، وهي دموع تعكس الحسرة الشديدة في قلب الفتاة التي غاب عنها طيف والدها، والتي تحتضن دميتها ليلا لتتناسى آلامها، وتخفي دموعها، وتكتب مشاعرها التي تفيض عاطفة، كقولها في قصيدة(ما خلته حلما)[35]:

وأتيت في الرؤيا كأن لم تبتعد حيا بكون مذ رحيلك لم يعد.

صدقت رؤياي الجميلة إذ بها ضـــوء يبدّد مبتغاي إلى الأبد.

أبتاه عدت بدون شيء يا أبي وغدوت طيفا من زمان مفتقد.

مطر الخريف أتى كمثل عهوده يبكي موات الأغنيات وما وجد.

وحدي أحاكي اللاوجودك والدي لتعيدني الذكرى لصمت يتّقد.

إنّ اللغة التعبيرية في شعر لطيفة تجعلها تعدد المدلولات لتعدد المقامات الخطابية التي تدل على الاحترام والتقدير في قولها(أبتاه)، وعلى السند والركيزة والانتماء والحماية في قولها(أبي) وعلى الالتزام والتأدب في قولها(والدي)، لتأتي دلالة الشوق والحب والعاطفة والتّعلّق في لفظة(بابا) في قولها[36] :

أوَكلّما أوغلت في النسيان تصرخ دمعتاي بلا شعور بابا.

يقول حبيب مونسي في ذلك:" ... ومن أنثى تقف على عتبة بابا دارها ترثي الوطن... وترثي الحلم... وترثي الأب الذي كان يحمي وجهها وظهرها... إنّه ديوان اليتم بالمعنى الجديد لليتم والفقد، كلّ قصيدة فيه تحمل هذا الأنين الخافت الذي ترسله الأنثى، وقد انكسر عمودها، وانهدّت ركيزتها...، لا شيء من صراخ سوف يعيد لها شموخها... الأنين ربما سيدفع عنها تهمة الصمت... سيسجل قصيدتها في دفتر الرفض... يوما ستعاد كتابتها من جديد قصيدة للنصر"[37]، فإلى جانب الحديث عن الأب نلمح حديث الشاعرة عن الأخت الصغرى في قصيدة عنوانها(عيشا).

2- نبرة الحزن وأثرها في ديوان" أغنية تشبهني":

إن دلالة الحزن(الحزن مصطلح في الشعر المعاصر) تقابل دلالة مصطلح الرثاء قديما، وهي دلالة ارتبطت بالشعر النسوي منذ القديم وحضرت في شعره الحديث والمعاصر " لكن في الشعر المعاصر قد يكون الحزن حلّ محلّ الرثاء، هذا الحزن الذي يتخذ طابعا فلسفيا أحيانا نشعر معه أنه ملتصق بالمرأة أينما حلّت، فقديما كان الرّثاء، والآن الحزن مجرّدا(مع ملاحظة أن الشعر المعاصر لا يقسم الأغراض الشعرية على ما سارت عليه في القديم) فضلا على أن الحزن لا يستقل بقصيدة، وإنما هو مبثوث في ثنايا القصيدة"[38].

وأكثر ما يغلب على شعر لطيفة حساني في ديوانها" أغنية تشبهني" هو النبرة الحزينة المتشائمة من الأمس المرير المتطلّعة إلى غد أفضل يعلوه الأمل والإشراق، بعيدا عن نائبات الدهر وعن خلجات الصدر التي ضاقت بها النفس وتعبت منها، فهي كأي أنثى تبحث عن الطمأنينة والاستقرار، وهذه النبرة الحزينة ليست خصيصة بها فقط بل هي حاضرة في نصوص الشاعرات المعاصرات اللاتي" يكثرن من التعبير عن الألم، واستعذابه وتقديسه، وقد يرتبط ذلك بطبيعة حياتهن البيولوجية التي يتعرّضن فيها إلى كثير من الآلام والمتاعب، كما أنّ الشعر النسوي مشوب بالعاطفة، التي تحلّ فيه مكان العقل والمنطق،

ويمتلئ كذلك بالأحاسيس والمشاعر التي تدل على عدم رضا النساء بالحياة في عالمهنّ، والقلق الدّائم من المجهول، والمرأة ترحب بالألم ورموزه، وتنشأ عن هذا الترحيب علاقة راسخة بين المرأة والحزن"[39]، وزيادة على ما ذكرناه من دلالات الحزن عند الشاعرة في فقدان أبيها، نذكر قولها في قصيدة(وهم)[40]:

يا قلب سرت على مدى الأوهام

تختلس المنى من نفس أقبية الأسى ما أوثقك

ذوّبت في نهر التّرقّب دمعتين تذكران الأمس.

يا للأمس ...

فذلك تصوير لحالة التيهان والضياع. تقول واصفة شدة الانكسار الذي آل إليه العربي في قصيدة(عزف دمشقي)[41]:

ماما إذا جاء الصباح ولم يجدني لا تقولي إخـــــوتي قتلوني.

لا ضير إنّي في النعيـــم وإنّما أخشى عليهم من غد ملعون

إن كان موتي من صنيع أقاربي كيف الملام على بني صهيون؟.

لقد جاء الخطاب على لسان الفتى الصغير الذي ذاق الهم وعرف الحزن ومعنى الغدر قبل أن يكبر، فقد فرضت عليه الظروف الكبر قبل الوقت فعاش عمرا غير عمره وحالا غير حاله.

وهو تصوير يعكس الحالة النفسية التي بلغت بالطفل الصغير أشدها فراح يتحمّل سنا وهما أكبر منه، فوصفته الشاعرة خائفا من الغد لا يأمن فيه القريب أو البعيد..

3- المكان ودلالاته المأساوية في ديوان" أغنية تشبهني":

عبّر المكان في شعر لطيفة حساني عن الأصالة والحنين إلى الوطن فجاءت القصائد دالة على معاني الغربة والوهم والتشتت العربي... فمرة تنزع فيها إلى ذكر موطنها المحلي ومسقط رأسها، وتارة إلى ذكر موطنها القومي الذي ركّزت في حديثها عنه على أحداث دمشق وما آلت إليه الأمور فيها.

فالمكان هو الوجود الذي ينتمي إليه الشاعر وبه تتكون شخصيته فهو" ابن بيئته بأحداثها وتاريخها وهمومها وآلامها وآمالها... يتأثر بالحاضر والماضي حسب قربه أو بعده عنهما وهو يتدرّج في أطوار حياته، تنطبع فيه تلك الآثار، وعندما يصبح مبدعا(في أي

مجال) فإن إبداعه يكون وليد سياقات اجتماعية وإنسانية وبيئية، بالرغم من صدوره نتيجة الخبرة الذاتية والمعرفة الجمالية والتجارب التي مرّ بها"[42].

وذكر الشاعرة لكلّ تلك الأمكنة في الديوان تعبير عن مشاعر دفعها الحنين إلى استنطاق القلم فيها، فهي كأي شاعرة تأبى الواقع المعيش الذي تشهده بلدان العالم العربي فتجاوزت كل الحدود الجغرافية وأخلت الساحة للقلم الشعري الذي ينتج دلالاته وفق معطيات نفسية وذاتية تخرج إلى تجسيد المكان في نصوصه الشعرية في ثلاثة صور:

1- سيدي عقبة(مسقط رأسها): ترنيمة إلى أرض عقبة، وجه من نخيل عقبة.

2- جزائر الروح.

3- دمشق النازفة الباكية: نزف دمشقي، آه يا شام، دمعة طفل عربي.

وفي الصورتين الأولى والثانية تظهر صفات الأصالة والانتماء للأرض، حيث اختفت فيها نبرة الحزن والمأساة واستعادت الروح مهجتها بحديثها عن بلدها مبينة اعتزازها به وبالانتماء إليه تقول في قصيدة(جزائر الروح)[43]:

من قفرة اليأس أو من ديـــمة الجـــلد إليك يحملني الإخلاص يا بلدي.
جزائر الروح يا غيما يهـــــدهـــدني حلما يسافر بين النار والبـــــرد.
أنت اخضرار حروف الوجد في شفتي أنت الجـــــزائر يا أنشودة الأبد.
للمـــجد أمّ وللـــــــــتاريخ مكرمة يا جنة زرعت في الجـــــدّ الولد.

وفي قصائدها عن مدينة عقبة الفهري تصف القمر والسماء والنخيل والماء... إذ العلاقة بينها وبين المكان علاقة عميقة مرجعها الأصل ومنطلقها الهوية التي تتشعب من المكان لتصل إلى وصف الجزائر.

ثم عادت بعد هذا النص إلى الانغماس في حسّها المأساوي مشيرة إلى ما ناب الطفل العربي الدّمشقي فراحت تشاركه أوجاعه ويتمه وهمومه وذرفت معه دموع القصيد تقول في قصيدة(دمعة طفل عربي)[44]:

الأرض مقفرة الملامح والصور من أين لي أفق لأغنية المـــــطر.
طفل على تلاّت خيبتنا يفتّش بين طين وجودنا لأين البـــــشر.
لا وجه يرشدني لمخـــبأ لعبتي فجميعكم درب يسير إلى الخـــطر

فما قدمه السياب من أغاني المطر لم تعد تجدي اليوم نظرا لتأزم الأوضاع أكثر فالمعاناة صارت أضعافا إلى حدّ تعجز الكلمات عن وصفه فاختارت الأسلوب القصصي الحواري لتبدي ما يظهره المستعمر من فرقة وشتات ونزف لا يلتئم...

ثم تبعث بين القصائد آهة تحوي دمعا عن الشام الجريح الذي فاحت دماء أبنائه ياسمينا يملأ الرحب، تقول في قصيدة(آه يا شام)[45]:

كانت كمثل الشام أحلام الصبـــا ضوءا يسافر في غد من ابتـــسام
يا ذاهبا للشرق سلّـــم لي على ماض توسد قلبي الدامي ونـــــام
سلم على كل الزهـــــور وكل قبر كان بشرى للمحبة والوئـــام
كان المكان معارجا للحـــــسن يا جمر الزمان فدع فؤادي في سلام

وبناء على ما تقدّم فإن أغلب لغة الديوان سيطر عليها الحس المأساوي ممثلا في أصواتها وألفاظها وعباراتها المكررة وبناها الإيقاعية، كما ظهر الحس المأساوي في الرموز الدالة على صفات الحزن واليأس والتشاؤم والهروب من الواقع والعودة إلى الماضي في محاولة بحث عن الغد الأفضل، ونشير أخيرا إلى أن اللنبرة المأساوية كانت مدعومة في النصوص الشعرية بمجموعة من التناصات التاريخية والأدبية والدينية، تقول الشاعرة في قصيدة(للماء عزف آخر)[46]:

بي صرخة السّياب غصّة صمته جيكور يا جرحـــا بلا ميـــنـــاء
غرناطة شهقات لوركا لم تزل عزفا تهـــدّل من دم الشـــعـــراء
أصغي لصوت الأنبياء بداخلي يتلـــو وصايا الأرض بالإيـــحاء.
بلقيس حلمـــــي مرجأ فيها يراقب هدهـــــدا لو عاد بالأنباء

فالشاعرة في صراع البحث عن الذات والوطن تبعث صرخة السياب وتحييها في حديثه عن قريته جيكور مرتع راحته وملهمة أفكاره، وأشعار لوركا التي ذابت في غرناطة حبا وتعلّقا، وبلقيس الباحثة عن اليقين في صورة الطائر، وفي مواضع أخرى وظفت" قابيل" الذي تعدّى على حقوق أخيه وسلبه الحياة بسبب الغيرة والحقد غير مدرك لما يفعل.. كلها رموز حاضرة لنصوص غائبة وظّفتها للتعبير عن حزنها ومعاناتها وألمها، كما يبدو فيها انتظارها لنبإ سعيد فيه أمل وخبر جديد مثلما كان مع الهدهد في قصة سيدنا سليمان مع ملكة سبأ.

وكل هذه القضايا وغيرها من قضايا المجاز والمفارقة اتخذت منها وسائل للتعبير عن مشاعرها وآهاتها وأحزانها وآلامها وآمالها التي شكّلت مجتمعة ملامح بارزة لحس مأساوي يميّز اللغة الشعرية للشاعرة.

هوامش البحث:

(1) لطيفة حساني، ديوان أغنية تشبهني، دار ميم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2015، ص 17.

(2) الديوان، ص 17.

(3) الديوان، ص 17.

(4) عامر رضا، سيمياء العنوان في شعر هدى ميقاتي، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، جامعة غرداية، المجلد 7، العدد 2، 2004م، ص 101.

(5) حبيب مونسي، تقديم الديوان، ص 08.

(6) الديوان: ص 20.

(7) الديوان: ص 32.

(8) الديوان: ص 08.

(9) الديوان: ص 19.

(10) الديوان: ص 24.

(11) رحيم عبد القادر، علم العنونة، دار التكوين، دمشق، ط1، 2010، ص 23.

(12) المرجع نفسه، ص 23.

(13) رحيم عبد القادر، علم العنونة، ص 192.

(14) الديوان، ص 17.

(15) رحيم عبد القادر، علم العنونة، ص 192.

(16) الديوان، ص 37، 38.

(17) الديوان، ص 36.

(18) الديوان، ص 10، 11.

(19) الديوان، ص 10.

(20) الديوان، ص 27.

(21) الديوان، ص 21.

(22) https://ar.wikipedia.org/wiki/. (تاريخ الاطلاع: 2017/11/25، الساعة: 16:09)

(23) الديوان، ص 10.

(24) ينظر، فاطمة حسين العفيف، لغة الشعر النسوي العربي المعاصر، ص 109.

(25) الديوان، ص 30.

(26) سعيد لراوي، أثر الحزن في البنية الموسيقية الشعرية عند بدر شاكر السياب، مجلة الأثر، كلية الآداب واللغات، ورقلة، العدد الرابع، 2005م، ص 7.

(27) سعيد لراوي، أثر الحزن في البنية الموسيقية الشعرية عند بدر شاكر السياب، ص 1.

(28) الديوان، ص 30.

(29) سعيد لراوي، أثر الحزن في البنية الموسيقية الشعرية عند بدر شاكر السياب، ص1.

(30) الديوان، ص 35.

(31) الديوان، ص 27.

(32) الديوان، ص 19.

(33) الديوان، ص 21.

(34) الديوان، ص 22.

(35) الديوان، ص 33.

(36) الديوان، ص 29.

(37) حبيب مونسي، تقديم الديوان، ص 9.

(38) فاطمة حسين العفيف، لغة الشعر النسوي العربي المعاصر، ص 117.

(39) المرجع نفسه، ص 119.

(40) الديوان، ص 16.

(41) الديوان، ص 25.

(42) محمد الصالح خرفي، جماليات المكان في الشعر الجزائري المعاصر، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006م، ص 111.

(43) الديوان، ص 12.

(44) الديوان، ص 12.

(45) الديوان: 19.

(46) الديوان: 19.